

تمهيد

الفكر الإنساني والفلسفة الحديثة

فى البدء كان الإنسان حرا طليقا فى الكون لا يحده حدود ولا يقيدده قيود. واستمتع الإنسان بحياته على الفطرة التى خلقه الله عليها. ولكنه وبعد فترة متدرجة من الزمن، وقف يتأمل الكون مندهشا وبدأ فكره يعمل واستخدم العديد من كلمات الاستفهام عما حوله مثل لماذا.. وكيف.. وأين.. وما.. كل ذلك لكى يصل إلى الحقيقة.. أى حقيقة الأشياء..

.. واستمر ذلك الأمر منذ بداية التفكير الإنسانى وحتى وصلنا إلى مرحلة الفلسفة القديمة حيث كان البحث الإنسانى يدور حول الحقيقة. وعاشت الفلسفة فى اليونان القديمة فى جو من التقدير والاعتبار الذى وضع مطلب الحقيقة غاية عليا وسامية.

ولكن تغير الحال فى العصور الوسطى حيث انتشرت المسيحية فى أوروبا كلها وأسلم الناس قياداتهم إلى الدين، حيث كان على المفكرين أو الفلاسفة التوفيق بين الفلسفة والدين وتحولت الفلسفة فى العصور الوسطى من مطلب الحقيقة إلى خدمة الدين.

ثم جاء عصر النهضة وعادت الفلسفة، والفكر الإنسانى عمادها إلى البحث الحر عن الحقيقة، وخاصة بعد انتشار العلم وتطبيقاته العلمية، حيث اتجه الفكر الإنسانى إلى ما يمكن أن يكون مفيدا ونافعا فى الحياة. وهنا حدث التقارب بين العلم والفلسفة حيث أصبح الهدف لكل منهما هو تحقيق المنفعة للإنسان.

وهكذا ظهرت الفلسفة الحديثة كوسيلة لتحقيق أهداف أو غايات أو منافع إنسانية واجتماعية. وأصبح الفليسوف أوالمفكر أكثر قرباً من مجتمعه وظروف حياة أفراداه وتفرغ بقدرته العقلية التحليلية الناقدة لدراسة قضايا ومشكلات مجتمعه لإيجاد الحلول لها. ومن هنا أصبح الجهد الفلسفى أو فكر الإنسان الفليسوف أكثر ارتباطاً بالبحث فى مشكلات الإنسان والمجتمع عنه فى البحث عن مشكلات الكون والوجود، وذلك خاصة بعد ازدياد تعقد الحياة بصفة عامة فى العصور الحديثة بل والمعاصرة.

ومن الضرورى هنا أن نشير إلى أن الفلسفة الحديثة لم تكن طبيعية فحسب، بل كانت فردية أيضاً فقد كان من مميزاتها الدعوة إلى تحرير عقل الفرد، وتقدير حق الفرد فى الحكم على الأشياء، والسماح لكل فرد أن يبحث فى أى شىء ينتقده.. غير مقيد فى ذلك بأية سلطة خارجية. ويعنى ذلك أنه أصبح لعقل الإنسان القول الفصل فى الحكم على الأشياء.. وبذلك ساد الاعتقاد بأن العقل الإنسانى قادر على أن يحل كل أسرار الكون، أو يفسر الطبيعة كما يراها ويفهم سرها. بل وصل إلى أبعد من ذلك من هذه الأسرار.

وعلى ذلك نستطيع القول أن الفكر الإنسانى فى العصر الحديث أصبح قادراً على :-

- أ - دراسة الكون والطبيعة من خلال الملاحظة والتجربة.
- ب - حرية الفرد فى التفكير، وحرية أيضاً فى الحكم على ظواهر الكون.

ت - التزاوج بين المادى والعقلى فى التفكير. فلا مادية خالصة أو محضة فى التفكير، وفى نفس الوقت لا استخدام للعقل بمفرده فى التفكير.

إن هذه الأمور الثلاثة السابقة تسمح لنا بأن تؤكد أن العقل الفردى أو الفكر الإنسانى له الكلمة الفاصلة فى كل شىء، دون قيد أو سلطة خارجية. ومن هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس قامت الفلسفة الحديثة وكان أول من حمل لواءها كل من:

فرنسيس بيكون (الإنجليزى) ورينيه ديكارت (الفرنسى).

ومن الجدير بالذكر أن بيكون وديكارت قد أتفقا فى الغرض أو القصد، ولكنهما اختلفا فى الوسيلة.. ذهب «بيكون» إلى أن المصدر الوحيد للمعرفة أو الحقيقة هو.. ملاحظة العالم الخارجى وتجربة ظواهره، فى حين أن «ديكارت» ذهب إلى أن العقل يمكن أن يكون عاملا مساعدا تتدفق منه المعرفة إلى جانب العالم الخارجى الذى ينتقل إلينا علمه أو معرفته بواسطة الحواس.

وكان من نتائج هذا التطور فى التفكير الإنسانى ظهور مذاهب أو مدارس فلسفية جديدة فى أوروبا وأمريكا بصفة خاصة نذكر منها: مذهب المنفعة عند «جيرمى بنتام» فى إنجلترا، والوجودية عند «سارتر» فى فرنسا، والبرجماتية عند «وليم جيمس» فى أمريكا.

وقد جاءت هذه المذاهب الفكرية أو الفلسفية مصاحبة لتقدم الطبيعة وتطبيقاتها، وبدأ الإنسان إزاء ذلك فى الالتفات إلى ذاته أو إلى نفسه لدراستها وللبحث عن تاريخ الإنسانية. وقد أدى هذا - كما ذكرنا - إلى

ظهور فلسفات أو مذاهب فلسفية جديدة ومعاصرة محورها الأساسى هو الإنسان الفرد.

وفى هذا الصدد لايجب أن نغفل مدى تأثير العالم العربى ، بل والإسلامى بمثل هذه الفلسفات أو المذاهب الفكرية الحديثة والمعاصرة، وظهر مفكرين مصريين وعرب وإسلاميين مثل رفاة الطهطاوى ، وجمال الدين الأفغانى ، وعلى مبارك باشا ، وعبد الرحمن الكواكبى ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وقاسم أمين ، وأحمد لطفى السيد وغيرهم.. حملوا جميعا لواء التغيير والإصلاح والتنوير السياسى والاجتماعى والتربوى والدينى فى مصر والعالم العربى والإسلامى.

